التّرفيه

عنِ

المُعَمّى: (فِيه)

صنعة

إسماعيل بن محمد يحيى أشفقنا الله

(نسخةٌ مَزِيدة)

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله

قالَ العلامة الشيخ الفتى الأديب الشيخ سيدي محمد (سيدنا) بن الشيخ سيدِيَّ ــ رحمه الله تعالى ــ مُلْغِزاً[1]:

عَجِبْتُ لِجَامٍ[2] فِيهِ قَدْ جَمَعَ الْفَرْدُ[3] أَشَائِبَ[4] ضِدّاً[5] وَهْوَ فِي حَالِهِ فَرْدُ
حَيَاتَانِ مَا صَحَّ اجْتِماعُهُمَا مَعاً وكِلْتَاهُمَا كانَتْ بِمَوْتٍ لَهَا عَقْدُ
إذَا حَصَلَتْ إحْدَى الحَيَاتَيْنِ أُعْضِدَتْ بِمَوْتٍ وإنْ تُفْقَدْ فَذاكَ لَهَا فَقْدُ
وتِبرٌ وفَخَّارٌ وضَوْءٌ وظُلْمَةٌ وطِيبٌ ونَتْنٌ والْحَنَاظِلُ والشَّهْدُ[6]
ولَيْثٌ صَيُودٌ لِلْيُوثِ ومَا لَهُ نُيوبٌ ولاَ ظُفْرٌ، خُبَعْثِنَةٌ وَرْدُ[7]
يُقَطِّعُ أَطْوَادَ الْحِجَارَةِ حَدُّهُ ولاَ يَقْطَعُ الزُّبْدَ الْمُذَابَ لَهُ حَدُّ
وعَضْبٌ إذَا هَبَّ الرِّياحُ انْتَضَيْتَهُ ولَيْسَ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا أَبَداً غِمْدُ
وفِيهِ أَفَاعٍ لاَ يَضُرُّ جِوَارُهَا بِلاَ أَلْسُنٍ تَهْذِي كَمَا اخْتَصَمَ اللُّدُّ
وثُقْبَانِ فِيهِ دَاخِلاَنِ كِلاَهُمَا وَمَا فِيهِ لَمْ يَسْقُطْ ومَا لَهُمَا سَدُّ
وأَجْزاؤُهُ فِيهَا الْحُرُوفُ تَكَرَّرَتْ ثَلاَثاً ثَلاَثاً فِي أَوَائِلِهَا تَبْدُو

وقد علّقَ المُحقِّقُ ــ وسَلَّمَ له المُراجِعُ ــ على هذه الأبيات بقوله في الصفحة ١١٠/ الهامش رقم ١: (المُتواتِرُ أنَّ المُلْغَز في هذه الأبياتِ هو "الإنسان"، ولم يُعْثَرْ لها على تفسير مُؤَيِّدٍ أو مُفَنِّدٍ)[8]. اهـ.

---

[1] ــ انظر: "ديوان الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديّ". ص١١٠. الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م. الناشر: دار الرضوان. نواكشوط ــ موريتانيا.

[2] ــ الجَامُ: إناءٌ من فضّة، جمعُه: جاماتٌ، وأَجْؤُمٌ، بالهمز، وأَجْوَامٌ. وقيلَ: الجَامُ: جمعُ جامَةٍ، وجَمْعُها جَاماتٌ.

[3] ــ الفَرْدُ: الحَقُّ سبحانه وتعالى.

[4] ــ الأشائِبُ: الأخلاط، مُفرَدُه: أُشابَةٌ.

[5] ــ الضِّدّ، بالكسر: المثلُ والمُخالف، ضِدٌّ، ويستعمل فردا وجمعاً كما في قوله تعالى: (ويَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً).

[6] ــ الشَّهْدُ، بالفتح: العسَلُ، ويُضَمّ.

[7] ــ الخُبَعْثِنَةُ، من أسماء الأسد. والوَرْدُ: لَوْنٌ أَحْمَرُ يَضْرِبُ إلى صُفْرَةٍ حسنةٍ في كلّ شيء، والمُرادُ هنا اللّسان.

[8] ــ انظر: "ديوان الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديّ". ص١١٠. الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م. تحقيق ذ. عبد الله بن محمد بن سيديا. مراجعة كل من ذ. إبراهيم بن يوسف بن الشيخ سيديّ ود. محمد تتا. الناشر: دار الرضوان. نواكشوط ــ موريتانيا.

قلتُ: بَلى، قد لاحَ لِي تفسيرٌ يَكشِفُ القِناعَ عن مُعَمَّى هذا اللّغْز، ويُفَنِّدُ ما تَواتَرَ مِنْ أنَّ المُلْغَز فيه هو الإنسان، فإلَيْكَ البيان ــ وبالله التوفيق ــ:

قالَ الشاعر في البيتِ العاشر ــ وهو مفتاحُ لُغْزِه ــ:

وأجْــزاؤُهُ فِيهَــا الْحُــرُوفُ تَكَــرَّرَتْ ثَــــلاَثاً ثَــــلاَثاً فِي أَوَائِلِهَــــا تَبْــــدُو

يعني أنّ اللّفظَ المُلْغَز في هذه الأبيات تَجِدُه مُكَرّراً بحُرُوفِه فيها ثلاثَ مرّات، في أوائلِ ثلاثة أبيات هي:

ــ البيتُ الأوّلُ عند قوله: "لِجَامٍ فِيهِ".

ــ والثامنُ عند قوله: "وفِيهِ أَفاعٍ".

ــ والتّاسع عند قوله: "وثُقْبانِ فِيهِ".

فاللّفظُ الذي تكرّرَ في أوائلها هو "فِيه"، وهذا اللفظ بعينِه مِنْ لُغَاتِ الفَمِ، قالَ في القاموس[٩]: (الْفَاهُ والْفُوهُ، بالضّم، والْفِيهُ، بالكسر، والفُوّهَةُ، والْفَمُ: سَواءٌ). اهـ.

فالشاعرُ إنّما أَلْغَزَ في "الْفِيهِ" بمعنى الفَمِ، وليسَ للإنسانِ ذكر في هذه الأبيات، لا بلفظه ولا برسمه.

ويزدادُ الأمرُ وُضوحاً وجلاءً عند تنزيلِ الكناياتِ والاستعاراتِ التي وَرَّى بها الشاعرُ عن مُراده. فاستعارة "الجَامِ" ــ وهو وعاءُ الفضة ــ للفِيهِ لائحةٌ قريبة حسنة، و"الحَيَاتَانِ" يعني بهما أنّ لهذا اللفظ استعمالان، لأن اللفظ المُستعمل حَيٌّ، ويقابله المُهمَل المُمَات، والاستعمالان المُشار إليهما هما: الفُوهُ، بالهاء، والفَمُ، بالميم، لأنَّ "فَماً" أصله: فَوَهٌ، بالتحريك، أو بالتسكين، حُذِفَتْ منه الهاءُ كما حُذِفَتْ من سَنَةٍ ونحوها، وبَقِيَتِ الواوُ طَرَفاً مُتحَرّكةً، فوجَبَ إبدالُها أَلِفاً لانْفِتاحِ ما قبلَها، فبَقِي: فاً، ولا يكون الاسمُ على حرفين أحدُهما الألفُ، فأُبْدِلَ مكانَها حرفٌ جَلْدٌ مُشاكِلٌ لها وهو الميمُ، لأنّهما شَفَهِيَّتان، وفي الميمِ هُوِيٌّ في الفَمِ يُضارِعُ امتِدادَ الواوِ، وهاتان اللغتان، أعْنِي لُغةَ الهاء، ولُغةَ الميم، لا يَصِحّ الجمعُ بينهما، بلْ إذا ماتَتْ إحداهُما بُعِثَتِ الأُخْرَى من مَرْقَدِها ، وهذا ما عَناهُ بقوله في البيتين: الثاني والثالث:

---

[٩] ــ انظر: "القاموس المحيط" للفيروز آبادي. مادّة: "فوه". طبعة مؤسسة الرسالة.

حَيَـــاتَانِ مَـــا صَحَّ اجْتِماعُهُمَـــا مَعـــاً وكِلْتَاهُمَـــا كانَـــتْ بِمَـــوْتٍ لَهَـــا عَقْـــدُ
إذَا حَصَـلَتْ إحْـدَى الحَيَـاتَيْنِ أُعْضِـدَتْ بِمَـــوْتٍ وإنْ تُفْقَـــدْ فَـــذاكَ لَهَـــا فَقْـــدُ

والأضدادُ المتقابلة في هذا الجَامِ (الفيه) المُفْرَدِ لَفظاً، هي أوصافُه المتغايِرَة بحَسَب الاعتبار، فهُو "تِبرٌ" و"ضَوْءٌ" إذا كان بَرَّاقَ الثَّنايَا، ذا ظَلْمٍ وأُشُرٍ و"ظَلامٍ" أيْ لَعَس، وهو "فَخَّارٌ" إذا كان بالضِّدّ ممّا ذُكِرَ، و"طِيبُه" و"نَتْنُه"، و"حَنْظَلُه" و"شَهْدُه"، كناية عن رِيقِه وما يَعْرِضُ له من أوصافٍ مُستَمْلَحَة أو مُسْتَقْبَحَة.

وأمّا "اللَّيْثُ الصَّيُودُ"، "الخُبَعْثِنَةُ الوَرْدُ"، الذي يصطادُ اللُّيُوثَ بلا ظُفر ولا ناب، فهو جارحةُ اللِّسان، الذي يقطعُ أطوادَ الحجارةِ قَطْعاً مَعْنَوِيّاً، وأمّا حِسّاً فلاَ يَقْطَعُ حتّى الزُّبْدَ المُذَاب..! وهو "العَضْبُ" الذي يُنْتَضَى- عند هُبُوبِ الرّيح، ويعنِي بالرّيح ههنا هَواءَ الفَمِ الخارجَ عند النُّطْق، ولا غِمْدَ له سواه، وكُلُّ هذا كنايةٌ عن عظيمِ أثَرِ اللِّسان، وما تفعلُه آلةُ البيان.

و"الأَفاعِي" التي لا يَضُر- جِوارُها، وتَهْذِي بلا أَلْسُن، كخُصَماءَ ذوي لَدَد، هي العُروق وضَرَبَانُها، و"الأَفاعِي" في الأصل، عُروقٌ تَتَشَقَّقُ من الحَالِبَيْن، فاستعارها الشاعر لعُروقِ الفَم والحَنَك.

و"الثُّقْبانِ" في قوله:

وثُقْبَـــانِ فِيـــهِ دَاخِـــلاَنِ كِلاَهُمَـــا وَمَـا فِيـهِ لَـمْ يَسْـقُطْ ومَـا لَهُمَـا سَـدُّ

عَنَى بهما اللّذان يَكْتَنِفان اللَّهاةَ، وهي اللحمة المُشرفة على الحَلْق في أقصى- الفَم، فما فيه لم يسقُطْ فيهما مع أنه لا سِدادَ لهما.

ومن الإشارات الفَرعِيّة المُبَطَّنة الهاديةِ سبيلَ الرَّشاد في فَكِّ هذا المُعَمَّى أنّه يجوز في قوله في البيت الثاني: "ما صَحَّ اجْتِماعُهما"، أن يُقْرَأَ بفصلِ "هُما" عما قبلها في الرّسْم، فيصير الكلامُ مُنصَبّاً على نفس الهاء من "فِيهِ" والميمِ من "فَمٍ"، ومنها قوله في البيت الأخير: "وأجْزاؤُه فيها الحروفُ" مُشيراً إلى حروف كلمة الفِيهِ بلفظها، لأن الألف من "فيها" مُسْقَط في دَرج الكلام لالتقاء السّاكنين.

ويَبْقَى أن نُجيبَ عن السُّؤال المُقَدّر: كيفَ إذنْ نُفَسّر- دَعْوَى أنّ المُلْغَز في هذه الأبيات هو "الإنسان"؟ وما أصْلُ هذا الوَهْم؟

والذي أراه في أصلِ نُشُوءِ هذا الوَهْمِ وفُشُوِّه، أنّ أحدَ النُّسّاخ الأُوَل فَهِمَ أنّ اللّغْزَ إنما يتعلّقُ بالفَمِ إجْمالاً، ورأى شِيَاتِ اللّسان، في ثَنايَا النّظام، من دُونِ أن يَتَحَرّر له وَجْهُ الكلام، فَوَقَّع بأنّ المُلْغَز فيه هو "اللِّسان"، ثُم تَصَحَّفَ هذا الحرفُ في مرحلة أُخْرى من "اللّسان" إلى "الإنسان"، وغرائب التّصحيفِ جَمَّة، وقد وقع فيها عبر العُصور أئمَّة.

والله تعالى أعلم. وصلّى على نبينا محمد وسلّم.